كتابك

٩٠

د. حسين فوزى النجار

الإسلام وروح العصر



دار المعارف

كتابك ٩٠

رئيس التحرير أنيس منصور

د. حسين فوزي النجار

الإسلام وروح العصر



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

روح العصر

إننا نعيش عصراً مليئاً بالمفاجآت ، فحيث تبدو الرؤى والأحلام حافلة بالأمل فى مستقبل زاهر للإنسان ، يحمله العلم والتكنولوجيا محلقاً فوق أبهاء وردية من الأمن والراحة والرخاء ، يبدو هذا الأمل مغلفاً بالشك فى جدوى هذا التقدم العلمى والتكنولوجى ، الذى يفوق الخيال لراحة الإنسان وأمنه ورخائه ، فهل يقف بنا العلم والتقدم التكنولوجى على حافة الهاوية ، حيث النهاية المفجعة لحضارة امتدت جذورها منذ عشرة آلاف عام من عمر هذا الكوكب الأرضى المديد. إلى ملايين من السنين لانعرف من أمرها شيئاً غير ماتقذف به إلينا بطن الأرض من حفريات لاتشبع نهمنا لمعرفة هذا الماضى المديد ، أم ترى يحملنا العلم والتقدم التكنولوجى إلى تجاوز هذه المحنة وعبور تلك الهاوية سالمين.

وقد تبدو النذر فاجعة عندما يغدو مصير الإنسان معلقاً بخيط واه من إرادة مجنون تدفعه نزوة طارئة أو تقدير خاطئ ليطلق آلته الجهنمية من الصواريخ والرؤوس النووية لتشيع الدمار والخراب فى عالم أضنى الإنسان ببنائه الرائع وإن حفل بالإحن والمآسى .

ولعل هذا هو ماحمل برناردشو فى إحدى محاضراته التى ألقاها وهو يطوف العالم عام ١٩٣٣ إلى التنويه بذلك فى قوله :

« إن الحقيقة التي تواجهنا اليوم هى أننا نقف على حافة الهاوية نفسها التي تردت فيها الحضارات السابقة وتحطمت ، وليس هناك شك فى هذا ، فالأغراض هى نفس الأغراض ، والمصاعب هى نفس المصاعب ، ولكن احتمال وقوع الكارثة أشد وأقوى ، فهل ياترى نجتاز الهوة أو نقع فيها بلا حول ولا قوة » ؟ .

وهو بالذات ماحمل لورد لوتشيان فى الخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر الدينى بجامعة عليكرة عام ١٩٣٨ على إلقاء هذا السؤال :

« هل يستطيع دينا الهند العظيمان : الهندوكية والإسلام ، أن يصمدا لضغط النظرة العلمية الحديثة الناقدة بأكثر مما استطاعت الأديان الأرثوذكسية فى الغرب ؟ ، ثم يقول : هذا سؤال هام على قادة الهند الدينيين أن يواجهوه إذا كان للهند أن تتجنب الكوارث التى ألمت بالغرب . إن النظرة العلمية ستذيب بالتدريج مابقى فى نفوسنا من خرافة وهذيان وجهل ، ولكن هل تنزعزع من هذا قيمة التعاليم الروحية التى بشر بها الدينان العظيمان بين المثقفين من الجامعيين والجامعيات الذين سيقودون خلال الجيل أو الجيلين القادمين الحياة السياسية والثقافية والصناعية فى الهند » ؟ . .

فمن الواجب ألا يقف الدين بالإنسان على حل لغز الكون ، وإنما عليه أن يفسر له فى دقة علمية كيف يسيطر على القوى الجديدة التى تهدد حياته بالدمار أكثر مما تنفعه ، كيف يتفادى البطالة والحيف والاستغلال

والظلم والحرب وغير ذلك من أمراض المجتمع ، وكيف يعالج الخلافات الشخصية والعائلية التى تهدد سعادة الفرد ، فالإنسان بعد أن تراكمت عليه مشاكل العلم وازدادت دون حل ، يلتمس فى الدين الهداية فى حلكة الشكوك والمشاكل ، وعلى الدين – إذا أراد أن يستعيد مكانته أو يبقى عليها – أن يقدم حلولاً روحية علمية تؤدى إلى نتائج حتمية [١]

ويقرر لوردلوتشيان فى هذه العبارة الموجزة حقيقتين–بقدر ماهما قيمتان بالنظر والتأمل – بقدر مايستدعيان مزيداً من البحث والدراسة ، أولها إفلاس حضارتنا وهى حضارة أوربية لحماً ودماً لها أصولها العقلية والعلمية الجديدة كل الجدة ، فهمَا يكن امتدادها فى الماضى فإنها ترتكز على ثورة صناعية وتكنولوجية لم يكن لها وجود فى الماضى ، فبعد حضارة زراعية طوال آلاف السنين السابقة قامت حضارة صناعية جديدة لا يجاوز عمرها قرنين من الزمان ، وأصبح تقدم الإنسان فى ظلها مما يفوق الخيال ويجاوز الرؤى مهما أغرقت فى الأحلام ، بل إن تقدم الإنسان خلال العقدين الأخيرين من جيلنا ليفوق ما حققه آباؤه فى عشرات القرون التى سبقتها .

والحقيقة الثانية هى مايراه من إفلاس هذه الحضارة ، حضارة العصر القائمة ، فى عجزها عن التوفيق بين ماهو مادي وما هو روحى ، أو بمعنى آخر يحدده تحديداً بيناً ، فيما يراه من عجز الأديان الأرثوذكسية

---

(١) اقتبسها همايون كبير فى كتابه العلم والديمقراطية والإسلام ترجمة عثمان نوية .

فى الغرب . . عن التوافق مع العلم .

وحتى يستعيد الدين مكانته فى النفوس فإن عليه أن يقدم الحلول الروحية العلمية التى تؤدى إلى نتائج حتمية ثابتة ثبات الاستقراء العلمى ، إذ أن قدرة الدين ، أى دين ، إنما هى فى التوفيق بين المادى والروحى وبين الفكر والواقع ، وبين ماهو طبيعى وما هو فوق الطبيعة

وليس فى المسيحية الصحيحة ماتنوء به من هذا العجز ، فما كانت غير حركة إصلاح لليهودية المنهارة ، وحين جاء المسيح عليه السلام يبشر بملكوت السموات ، لم يكن داعياً إلى عقيدة جديدة غير مايدين به إبراهيم وإسحق وموسى عليهم السلام ، وإنما جاء ليعلى من شأن الأخلاق والقيم الروحية التى ضاعت فى المجتمع اليهودى ، ولتكون بشارته للعالم أجمع لا لشعب مختار ، أما ماحاقها من كهنوت وتعاليم لاهوتية وطقوس معقدة فقدكان من صنع القديس بولس . ولعله وحده هو المؤسس الحقيقى للديانة المسيحية ، وإن سلمنا بألا مسيحية بغير المسيح ، وليس فى المسيحية مايدعو إلى التأمل فى الكون أو الدعوة إلى النظر العقلى .

فلما جاءت ثورة العلم وقفت منها الكنيسة موقفاً عنيداً ، لم يجن على العلم بقدر ما جنى على الدين حين حمله أصحابه أكثر مما يحتمل ، فأصبحت النظرة للدين عامة أنه عائق أمام التقدم وأنه سياج يحجب العقل عن رؤية الحقيقة فلا مجال للتقدم مالم يتحرر الفرد من وقر

الدين ، « وما من تفكير يتناول الواقع والوجود ولا يقوم على التجريب إلا وهم وسفسطة أحرى بأن نلقى به إلى النار »[١] .

ثم كانت الحركة الإنسانية فنبذت الفكرة القديمة عن انحطاط الطبيعة البشرية ، وعجزها ، وغذت الدين – برغم معاداتها للعلم – بأفكار جديدة فى تأويل الطبيعة البشرية وتفسيرها ، فأعلت من القيم الخلقية والفكرية فى الإنسان ، وبقدر ماغذت الحركة الإنسانية الفكر بالقيم الجديدة للإنسان ، بقدر ماغذته الفلسفة بفيض من الأفكار العقلية انتهت جميعاً بزلزلة الأفكار الدينية التى أحاطتها الكنيسة بسياج من القداسة ، ظل سائداً طوال العصور الوسطى ، ثم تحطم فى دوى لم يكن له شبيه من قبل ، وقد تضمن المذهب الديكارتى تلك النظرة العقلية للدين ، وكان من اليسير أن تغدو أساساً لتوطيد الإيمان الدينى على أساس عقلى ، أو تحطم من الدين مالا يقوم على أساس عقلى ، وأدرك باسكال عبث الدليل العقلى فى إثبات الحقائق الدينية ، وقال إن البرهان وإن أيد الدين بوجه عام فإنه يعجز أمام التفاصيل اللاهوتية ، فإذا صحت هذه المحاولة بالنسبة للإسلام واليهودية لقلة ماتضمنا من أسرار وتعقيدات فإنها لاتصح بالنسبة للمسيحية والتعقيدات اللاهوتية[٢] .

---

(١) David Hume Enquiry Concerning Human understanding p. 1. III sec 12.

(٢) John Herman Randall J R: the Making of Modern Mind Ch. 12.

وبقدر ماقوض العلم من أركان الدين بقدر ماقوض رجال الدين أنفسهم من جلاله وتوقيره فى نفوس العامة ، لا لمخازيهم وفضائحهم التى شاعت وعمت بين الناس ولكن لموقفهم العنيد من قضايا الفكر وقضايا السياسة ، فإذا كانت الكاثوليكية -كما يرى برتراندرسل - قد استطاعت أن تبدع أقوى مجتمع منظم خلال العصور الوسطى ، وأن تقيم أعظم بناء داخلى منسجم من الغريزة والعقل والروح عرفه العالم الغربى ، يمثل ذروة تطوره الفردى القديس فرنسيس وتوما الإكوينى ودانتى ، كما تمثل الكنائس والطوائف الديرية وانتصار البابوية على الإمبراطورية ذروة تفوقه السياسى ، فإنها لم تبلغ من السعة حد الكمال ، فقد بقيت الغريزة كما بقى العقل والروح ، كل أولئك ظل بعيداً عن الاندماج فى النسيج العام ، فأرباب المهن ظلوا خاضعين للكنيسة بأساليب ينفرون منها ، كما كانت الكنيسة ذاتها تستغل سلطانها للنهب وإيقاع المظالم بالناس ، وبقى هذا البناء الكنسى عدواً للتطور الجديد ، وأصبح على الناس قبل أى شىء آخر يكافحون فى سبيل حقوقهم ضد أصحاب النظام القديم وممثليه » (١) .

فإذا كان المزاج الثقافى للعصر الحاضر كما يراه سانتيانا ، ينبعث من حضارة حلت محل الحضارة المسيحية ، فإن الاتجاه الدينى مازال قائماً ، وإن كانت صدفة المسيحية قد تحطمت من جانب آخر ، فتشبعت حياتنا

---

(١) B. Russel: Principles of social reconstruction Ch. 7

وعقولنا بروح جديد هي روح ديمقراطية دولية متحررة وغير مؤمنة بالله [١] .

وليس لنا أن نغالى أو نبالغ فى تقدير مانسميه انصرافاً عن الدين أو إهمالاً لشأنه ، فما كان الناس فى عصر الإيمان أكثر صدقاً فى إيمانهم بالدين منهم اليوم ، وإن أصبحوا اليوم أكثر تحرراً من ضغط الدين وأقل خضوعاً له مما كانوا فى الماضى ، بعد أن فقدت الكنيسة قدرتها على القهر والإرغام .

ولئن أدت المعرفة العلمية إلى الانتقاص من قدر الدين وتقويض الإيمان فى حضارة العصر فقد أدت بالتالى إلى قيام محاولات للتوفيق بين الدين والعلم ، إلا أنها لم تجد فى اللاهوت المسيحى مايعزز المصالح الدنيوية أو يبررها ، وبدا فى وقت من الأوقات أن الطبيعة البشرية التى كانت تعبر عن ذاتها فى التحرر الروحى الخالص قد أخذت تفصح عن نفسها فى قدرة الإنسان على الخلق والإبداع ، وتتجه إلى نوع من المثل الأخلاقية والاجتماعية ترى فيها إشباعاً لحيويتها ومطالبها الدنيوية ، وكان التعويض عن هذا الإخفاق هو اعتبار الدين مسألة شخصية ، ولئن فقد الدين بهذا جانبه الاجتماعى فى تكييف المجتمع باندماج الجانبين الشخصى والاجتماعى فقد ظفر بالنظرة الواعية المتحررة التى لاتجد للإنسان غناء عن الدين ، وإن تركت له عقيدته يصوغها كيفما يشاء وإيمانه يكيفه وفق ما يريد ، وكانت المحاولات الدائبة لتحرير المسيحية من طقوسها

---

(١) G. Santayana: Winds of Doctrine 1.

وأسرارها ومن سيطرة رجال الكهنوت المحترفين ، ولم يكن غريباً أن يدعو مفكر كبرتراندرسل ، إلى تحرير الكهنوت من الاحتراف ، وأن يقوم على الدين رجال لهم أعمالهم الأخرى يدفعهم الحماس دون الأجر[١] .

فإذا كان هناك من يرى من ضعف الإيمان بالدين مصدراً لشئون العصر ، فإن برتراندرسل يرى عكس ذلك تماماً ، ففى العالم اليوم من الإيمان مايفوق ماكان منذ عهد غير بعيد وإن مايلم بنا من أخطار يكاد يكون بعيداً تماماً عما يدين به الناس من معتقدات ، فإذا كان هناك من يرى فى الإيمان بالمسيحية مايمنع الحروب ، فإن هذا أمر لاقدرة لى على فهمه أبداً ، ومثل هؤلاء الناس – كما يبدو – عاجزون تماماً عن أن يتعلموا شيئاً من التاريخ ، فالدولة الرومانية أصبحت مسيحية فى عهد قسطنطين ، وظلت منذ ذلك الحين فى حالة حرب حتى اختفت من الوجود . . . بل إن حروباً أكثر وحشية وقعت لخلافات نشبت بين العديد من الطوائف المسيحية ، ولا أستطيع أن أعى حرباً مقدسة واحدة حققت خيراً من أى نوع كان ، وفى المعارك الأولى بين الإسلام والمسيحية كان المسيحيون هم المتعصبون والمسلمون هم المتصرون ، وقد اخترعت الدعاية المسيحية أقاويل عن التعصب الإسلامى ، وكانت جميعاً كاذبة وخاصة ماتناول منها القرون الأولى للإسلام ، فقد تعلم كل مسيحى قصة الخليفة الذى دمر مكتبة الإسكندرية ، مع أنها دمرت

---

(١) B. Russel, Ibid.

أكثر من مرة . وكان أول من دمرها يوليوس قيصر ، وكانت آخر مرة وجدت فيها المكتبة قبل ظهور الرسول .

وكان المسلمون أكثر تسامحاً من المسيحيين مع من يسمونهم «أهل الكتاب» ويكتفون منهم بدفع الجزية ، ولسعة أفقهم كانوا يقابلون بالترحاب ، وهو ما يسر لهم فتوحاتهم ، على عكس المسيحيين الذين لم يضطهدوا الوثنيين فحسب بل اضطهد بعضهم بعضاً ، فإذا انتقلنا إلى العصور التالية نرى أن إسبانيا دمرها تعصبها ضد اليهود والمسلمين على السواء ، كما نرى فرنسا بلغت أدنى درجات الفقر وحلت بها الكوارث بسبب اضطهادها للهيجونوت [١] .

النظرة الجديدة :

وأياً ماكانت نظرة المفكرين إلى أزمة العصر وما يدعون لها من أسباب تقصر أحياناً عنها الحلول التى يدعونها أو يبدعونها ، فإنه مما لاشك فيه أن العالم يمر بأزمة طاحنة لم تعد النظرة إليها كما كانت نظرة مفكرى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، بل غدت نظرة جديدة بعد التغير الهائل الذى شهده العالم فى أعقاب الحرب الثانية ، وهى نظرة مازالت إلى حد ما غاتمه بتأثير الأفكار القديمة للقرن

(١) برتراند رسل وترجمة عبد الكريم أحمد : المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة ، الفصل السابع .

التاسع عشر والتى أصابها البلى بعد الحرب الثانية أو خلال السنوات الثلاثين التى تلتها ، فلم تعد القومية ولا الحماس القومى وما يجره من تعصب عنصرى واستعلاء قومى وما أديا إليه من مساوئ الاستعمار هى نغمة العصر المحببة ، ولم تعد الدولة ولا التشريع ولا النظام نفسه من القداسة مايحمل المرء على الطاعة العمياء ، وغدا الإنسان وتوقيره والإعلاء من شأن الحياة بديلاً لإهدار الحياة فى حروب قومية ، أو تعصب عنصرى أو استعمار مدمر ، وغدا الإنسان وطموحه وتحقيق ذاتيته وتحريره من كل وقر أو استعباد أو عوز مطلباً للمجموع فى علاقته بالدولة ، فالتشريع والنظام لخدمة الإنسان وإعلاء شأنه وليس أداة لتحقيق إرادة الدولة على حساب المجموع .

إلا أن النظام القديم مازال باقياً وإن أخذ يتسم بتلك القيم الجديدة للإنسان ، فالديمقراطية ، وهى القيمة الوحيدة الباقية من تراث الماضى ، قد أخذت أشكالاً متعددة تتسم جميعاً بالقيم الجديدة للإنسان ، ويرى كل منها أنه الوحيد القادر على توفير الحياة وإعلاء كرامة الإنسان ، ولكنها مازالت بتأثير النظام القديم تحمل الناس على التعصب الذى يهدد الفكر ويحمل الشعوب على الشحناء .

ومما لاشك فيه أن الحضارة القائمة لها طابعها الفكرى كما أن لها طابعها المادى ، ولاريب أن كليهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، فالجانب المادى يطبع سلوك الناس ، بل وأفكارهم بطابع معين وحين يطغى

الجانب المادى على الجانب المعنوى فتكون له الغلبة فإن فكر الإنسان يبدو أسير أهوائه المادية دون اعتبار لقواعد الأخلاق والسلوك الاجتماعى وهى قوام الجانب المعنوى ، وقد يبدو هذا متعلقاً بالجانب الاجتماعى من الحياة دون العقلى منها ، إلا أن الفكر وهو غرس العقل هو الذى يصوغ الحياة الاجتماعية والفردية بما يشتهى الناس وتزين لهم أفكارهم .

وقد يبدو التوفيق بين ماهو مادى وماهو معنوى يسيراً ، إلا أن التناقض بينهما لايسفر عن نفسه فى حياة المجتمع ، فما زالت المساجد والكنائس والمعابد والبيع عامرة بمن يؤمونها ، ومازالت القيم الدينية وإن تحررت من العقيدة قائمة فى نفوس الناس ، وإنما يسفر عن نفسه فى التناقض القابع فى نفس الإنسان وفى إدراكه لذاته ومكانه فى هذا الكون الهائل ، فحيث تقيم الحقيقة فى عقله وفى إدراكه لوجوده تتمزق روحه ويعجم عليه التوفيق بين المادى والروحى ، مما يقوده إلى الضلال ويدفع به إلى الهاوية حين يرى ذاته محوراً لأحلامه وطموحه ، مادامت الحياة بغير غاية وأنها دورة فانية وإن تجددت على الزمن ، إلا أن وجوده بها فان ولا وجود بعده ، ويغدو أكثر مايحفزه ويرنو إليه فى حياته أن يعب منها ماقدر وأن يطحن غيره فى سبيل بقائه ، فتفيض من نفسه كل قيمة أخلاقية وتحل محلها أنانية بشعة واستعلاء مقيت ، فإذا عجز الدين عن التوافق مع العقل وتبرير الخلق والوجود فإن النهاية هى الإنسان التائه بين وجوده والغاية من وجوده .

فإذا كانت الحضارة هى نبت العقل الزاهى ، فإن القوى الروحية التى تسود وتؤثر فى الحياة الإنسانية ، يجب أن تكون وليدة فكر يقبله العقل ، وإذا كانت اليهودية قد جاءت بشريعة تنتظم فيها علاقات البشر فقد أغفلت الجانب الإنسانى حين ميز اليهود أنفسهم على كافة البشر ، وبقدر ماقدمت للإنسان أسمى فكرة للتوحيد ، فكرة الإله الواحد رب الخير والبر والصلاح ، بقدر ماقدمت له أدنى مثل للعنصرية البغيضة .

ولعل اليهودية لم تنفرد وحدها بالقضاء على الآلهة الخرافية التى حفلت بها الحضارات القديمة ، فى مصر كانت ديانة آتون تبشر بفكرة الإله الواحد المتسامى ، وبينما كان النبى أشعيا يقود اليهود فى بابل وينبئهم بالإله القادر ، كان بوذا فى الهند يتأمل الكون متجرداً من حياته المادية ساعياً وراء الحقيقة مبدعاً لحكمة مازالت سائدة حتى أصبحت ديناً له طقوسه ومراسمه ، وكان أبدع مافى حكمته قهر النفس عن النزوات الدنيا من الأنانية والطمع والشح وشهوات النفس والجسد ، فإذا بلغ أعلى مراتب الصفاء النفسى فقد بلغ مرتبة « النرڤانا » وهى أقصى درجات الخير ، وإن كانت أبعد ممايصل إليه جهد الإنسان ، كما كان كونفوشيوس فى الصين يبشر بحياة أعلى وحكومة أفضل وعالم نبيل يسود فيه سلوك قويم .

وإذا كانت البوذية والكونفوشية أقرب إلى الحكمة والفلسفة منها إلى الدين والعقيدة الإلهية ، فقد جاءت المسيحية لتعيد بناء اليهودية المنهارة

وتبشر بملكوت السماء الذى يضفى محبته على البشر كافة ، فإن أعظم ما قامت به كان تحطيم العنصرية التى شابت دعوة الإسرائيليين إلا أنها لم تبدع تشريعاً ينظم سلوك الناس وعلاقاتهم ، وإن أبدعت أعظم ثورة إنسانية حين منحت الناس جميعاً أبوة الخالق الأعظم ، إذ لابد لملكوت السماء – كما يقول هـ . ج . ويلز[١] أن يشمل الناس جميعاً ، وأن يضفى الله محبته على كل خلقه ، فقد كان اليهود – كما يقول – « يؤمنون بأن الله الواحد هو رب الناس أجمعين ، ويقدر ماهو رب بر وصلاح ، فهو رب تاجر عقد صفقة رابحة لصالحهم مع أبيهم أبراهام يعدهم فيها بأن يسمو بهم فى النهاية إلى سيادة العالم ، ولم يكن غريباً أن ينتابهم الفزع وهم يستمعون إلى يسوع ، وقد راح يحطم أمامهم كل آمالهم المنشودة ويعلمهم أن الله ليس رب صفقات ، وليس هناك من شعب مختار ولا أناس أولى بالحظوة فى مملكة السموات ، وأن الله هو الأب المحب للناس أجمعين . . . ونبذ ادعاء اليهود أن لهم على الله حقاً دون غيرهم من البشر . . . فالله لا يميز بين عباده » .

وإذا كانت المسيحية لم تبدع تشريعاً فقد أبدعت المحبة ونادت بالبر والتعاطف وإعلاء الفضائل الإنسانية ، وكانت أشبه بعاصفة تقوض مادية العالم الرومانى وأثرة اليهود وأطماعهم ، وكانت دعوة – كما يقول ويلز – إلى تغيير الحياة الاجتماعية بأسرها وصهر الإنسان وتحريره من جديد .

---

(١) H. G. Wells: Outline History of the world. Ch. 37.

إلا أن أتباعها لم يكونوا أوفياء لتعاليمها فحين آل إليهم الأمر بعد أن تحول العالم الرومانى إلى المسيحية أنزلوا بخصومهم كل ضروب العسف والاضطهاد ، وحين كانت الكنيسة تدعو إلى الطهارة والزهد كان البابوات والقساوسة ينغمسون فى شتى ضروب الترف والمتاع ، وساقوا جموع المسيحيين إلى التنكيل بمخالفيهم ، وثنيين كانوا أو مسلمين أو يهود ، وحتى من اعتنقوا مذاهب أخرى غير الكاثوليكية ، وقد ذبح شارلمان كل من رفض التعميد من السكسون ، وتحولت الحرب الصليبية الثالثة إلى الأرثوذكس من أتباع الكنيسة الشرقية ، وهكذا أخفقت الكنيسة فى تحقيق رسالة المسيح .

فإذا كانت الحضارة الغربية قد نبذت الدين وآثرت عليه نظاماً عقلياً أخلاقياً ، أو هكذا كانت دعوة المفكّرين كبرتراندرسل وألبرت شيفتزر ، أو حتى ماركس بحملته المدمرة على كل تراث الماضى واتهامه بالسوء ، فإنها لاتحقق النظام الأخلاقى المنشود وما دعوة المفكرين إلا صرخة فى واد أجرد .

وازع الدين ووازع الأخلاق :

ولعل أعظم مايميز الوازع الدينى عن وازع الأخلاق ، أن الوازع الدينى يقوم على الإيمان ثم الخشية ، الإيمان بإله قادر يحاسب الإنسان عما قدمت يداه ، والخشية من أن يبوء المخطئ بغضب الله ، فإن الإيمان

بالله يقوم على الإيمان به وبملائكته ورسله وباليوم الآخر ففى هذا اليوم الآخر يكون الحساب فتجزى كل نفس بما كسبت ، وخشية هذا الحساب فى اليوم الآخر هى التى يقوم عليها الوازع الدينى ، إذ أننا لانستطيع أن نجرد الإنسان من الغاية التى تحفزه فى كل أعماله وتقود خطاه فى كل مايفكر فيه ، فإذا بلغ الإيمان مداه وأصبح حباً فى الذات العليا فإن الحافز وإن قام على محبة الله فإنه لا يتجرد هو الآخر من الغاية وهو الرضا الإلهى القائم على المحبة ، أما وازع الأخلاق فإن الحافز فيه هو الضمير ، وقد لايصمد الضمير أمام المنفعة بل الأنانية التى تصم البشر منذ خلق البشر ، وإلا ماكانت هناك حاجة إلى القانون الوضعى ، حيث تقوم القواعد على تنظيم العلاقة بين المنفعة العامة والمنفعة الخاصة حين يضع القيود على نوازع الفرد التى تضر بالآخرين ، وطالما استطاع الإنسان خداع القانون وتجنب المضرة التى تقع عليه من مخالفة القانون فإن وازع العقوبة يتضاءل لديه ولا يبقى غير وازع الضمير ، وهو وازع غالباً ما يختفى أمام المنفعة ، فلكل إنسان مهما بلغ وازع الضمير فيه من القوة والأصالة حده من المنفعة ، فإذا فاقت بين العقيدة والحضارة وبين الدين والدولة وبين العقل والوجدان ، فالدين قوة وجدانية تمد الإنسان بالأمل والرجاء ما استقامت مع العقل وأضفت على الحياة من الحق والخير والجمال ما يضفى على الحياة كل بهجة ورواء ، فليس الدين غُلاً يقيد به الله إرادة الإنسان إلا فيما يسىء به الإنسان إلى نفسه أو إلى غيره ،

وليس فيه ما يعوق الإنسان عن التمتع بطيبات ما أحل الله ، فإذا انقلب غُلاً فى عنق الإنسان وقيداً على العقل وعائقاً دون الاستمتاع بالحياة أدى إلى الحيرة بين ماهو دينى وماهو من موجبات العقل ، وإلى التمزق الفكرى بين ماهو كائن وما يجب أن يكون أو بين ما يقوله الدين وما يقوله العلم ، ولا خلاص للإنسان من الحيرة والتمزق الفكرى ما لم يوفق بين الدين والحياة ، وبين الدين والعقل لتستقيم الحياة على هدى الدين أو يرفض الدين ويؤثر عليه العقل قواماً لحياته والعلم قواماً لحضارته .

الدين والمجتمع

لعب الدين فى تاريخ المجتمعات الإنسانية دوراً لايدانيه فيه أى عامل آخر ، فمنذ البداية وقبل أن تقوم الجماعة الإنسانية المنظمة ، وهى الجماعة التى يدرك فيها الفرد ذاته فى علاقته بالآخرين فيعرف ماله وماعليه ، كان الدين فى الجماعات التوتمية ممتزجاً بالحياة الاجتماعية متصلاً بغرائز الفرد وتفكيره أشد اتصال ، وكان التوتم فى حياة الجماعة أصلاً لوجودها وللصلات التى تربط بين أفرادها والتى تعد فى المجتمع التوتمى أقوى من صلات الأسرة ، فإذا انتقلنا إلى مجتمع أكثر تقدماً كمجتمع القبيلة ، نجد أن رؤساء القبائل يمثلون الامتداد الطبيعى لرؤساء العشائر التوتمية . وكانوا رؤساء دينيين تنتهى إليهم الرئاسة عن طريق خصائصهم الدينية التى يتناقلونها بالوراثة إلى الابن أو الأخ أو ابن الأخ إن لم يكن للرئيس من صلبه ولد ، وتتمثل هذه الخصائص فى توتم العشيرة التى يرأسها ، وفى معرفة الأسرار الدينية وطقوسها المتعددة ، وفى بلوغه سنا يؤهله لرئاسة محافل العشيرة وطقوسها .

ثم كان التطور الاجتماعى الأكثر تقدماً وتطوراً فى الدين والأخلاق قبل أن يغدو تطوراً فى التركيب الاجتماعى ، وحين نشأت الدولة فى مصر القديمة وهى أقدم مجتمع حضارى فى التاريخ نشأت فى رحاب الدين

وكانت شعائر الملكية ورسومها شعائر ورسوماً دينية ، وكان الملك المؤله فى حياته والإله بعد مماته ، وكانت المجتمعات المجاورة فى الهلال الخصيب وفى أرض الرافدين مجتمعات دينية تمتزج فيها طقوس الدين بالحياة الاجتماعية ، كما تمتزج فى السلطة السياسة سلطة الملك وسلطة الكاهن الأكبر ، وكان الدين قوام الدولة ، فالملك يقيم عبادة الآلهة ويرعاها ويحرس البلاد ويكفل رخاء الأهلين ، وكما كان فراعنة مصر وملوك مابين النهرين كان أباطرة روما أرباب الإمبراطورية وإن كانوا أرباباً سياسيين لا أرباباً إلهيين كما كان ملوك الشرق ، ولم يكن للإغريق إلهة من الملوك ، وكان الدين عندهم نظاماً أخلاقيًّا أكثر منه لاهوتيًّا تغلغله الأسطورة ويبدعه الخيال أكثر مما يغلغله السحر أوتبدعه الطقوس .

وحين نبذ الغرب الدين وآثر عليه العلم لم يتحرر من حاجة المجتمع إلى الإيمان بشىء ما ليسمو به هذا الإيمان إلى درجة العقيدة ، فكانت الإباحة فى العقيدة دون الإباحة فى الخلق ، وحين اتجه العقليون إلى ديانة العقل ، وأخذ دعاة الحركة الإنسانية يبشرون بعقيدة عقلية وأخلاقية ، لم ينكروا الله ولكنهم أنكروا من طقوس الدين وتعاليمه ما لايتفق مع العقل فنرى « ديديرو » يفند رأى من يرى ربط سواد الناس ببعض الأفكار التقليدية القديمة ، فيقول : « أية أفكار تقليدية قديمة ـ وما جدواها وما جدوى التقيد بها ، إذا آمن الإنسان بالله ، وأنه حق ، وعرف ما هو الشر وما هو الخير فى عرف الأخلاق ، وآمن بالخلود

والثواب والعقاب فى العالم الآخر ؟ ولنتصور أنه ألم بكل الأسرار الكنسية فى القربان المقدس والثالوث واتحاد الأقانيم والقدر والتجسد وما سوى ذلك ، فهل ترى إلمامه بها يجعل منه إنساناً أفضل[١] .

فالدين ظاهرة لا يستغنى عنها المجتمع ، وما دعاه « بالمر » بظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية ، لايعنى أكثر من تطوير النظرة الدينية لتكون أكثر توافقا مع روح العصر ، أما برتراندرسل فلا يرى فيما ذهب إليه إلا أن الدين قد بعث لخير الإنسان فما هو بقيد على الإنسان وما يجب أن يكون « وقارا عارضا أو حرمات خرافية أو داعيا إلى الزهادة والحزن » .

وحين ينكر الإنسان الدين أو يتنكر له مجتمع من المجتمعات ، فلابد أن يقيم لنفسه عقيدة جديدة هى البديل الطبيعى للدين القديم ، وعادة ما يكون للعقيدة الجديدة من القوة ما كان للعقيدة القديمة ، إن لم تكن أكثر ضراوة حين تفرضها السلطة أو يفرضها المجتمع ، فلا يكون للرأى الحر أو للنقد معها سبيل ، وهى الظاهرة التى نلمسها عند الشيوعيين أو نراها فى المجتمعات الشيوعية التى نبذت الدين وأقامت ديناً جديداً تكرز به وتبدع له المراسم والطقوس فأحلت الطبيعة محل الله ، واتخذت من البيان الشيوعي إنجيلا جديدا وزاوجت بين العقيدة والسلطة كما كانتا فى البابوية ، ورفعت لينين إلى مقام النبوة وأحاطته بكل ما للقديسين

(١) Duoted in John Morley, Diderot, 72.

والأنبياء من مراسم القداسة ، وجعلت من قبره مزاراً يحج الشيوعيون إليه ويطوفون بجسده المسجى محنطا مكشوفاً للزائرين ، ولا يسمح لأى زائر ولو لم يكن شيوعيًّا بأن يلج ضريحه مرتدياً القبعة أو القفاز . وقد قرأنا منذ سنوات خبر صحفى بلغارى أبى إلا أن يذهب راجلا من بلده لزيارة قبره فى العيد المئوى لمولده ، وهو ما كان يفعله الحجاج من المسلمين والمسيحيين حين كانوا يؤثرون الترجل على الركوب ، ويجدون فى مشقة الرحيل اكتسابا لمزيد من الثواب ، ويقتبس الشيوعيون أقواله ويستشهدون بها ويفسرها المجتهدون كما نقتبس أقوال الأنبياء والرسل ونستشهد بها ونفسرها ، وتحتل صوره وتماثيله مكان الأيقونات فى كل دار ومنتدى ومقر حكومى ، وتزدان الأبنية والحدائق بالمأثور من أقواله المنقوشة على ألواح أو أقمشة حمراء ، كما تنقش آيات القرآن على جدر المساجد أو مواعظ الرسل فى كنائس القديسين .

وتدعى الشيوعية نفس دعوى الأديان من حيث صلاحيتها لكل زمان ومكان ، ولها كما للأديان تفسيرها للكون والوجود ، ولها قانونها الأخلاقى المستمد من مبادئها . وتبشر بعقيدتها بنفس القوة والحماس والإخلاص فى الديانات القديمة ، ولا يقبل دعاتها نقاشاً فيها ، إلا أن يكون لهم الرأى الأعلى فيما يقولون ، وتصر على صلاح الجسد إصرار المسيحية على صلاح الروح ، وتنكر كل عقيدة سواها إنكار الأديان السماوية أى نزعة للوثنية أو الإلحاد أو الشرك ، وتجرى المادية العارمة فيها

مجرى الروحية فى المسيحية فتقع فيما وقعت فيه المسيحية من فصل بين الروح والمادة وتقيم مملكة الأرض كما أقامت المسيحية مملكة السماء .

وهكذا نبذت المجتمعات الشيوعية الدين لتجد نفسها دون وعى منها ، وهى تكرز بعقيدة جديدة تغلفها بكل ماأنكرته من الديانات القديمة ، فالدين ظاهرة – بقدر ماهى اجتماعية – فهى أيضاً ظاهرة نفسية ، وهو كظاهرة اجتماعية يمد المجتمع بالتوافق والانسجام الطبيعيين ويلهمه النظام الممثل فى القانون والماثل فى الدولة ، وكظاهرة نفسية يصوغ الوجدان الأمة ويلهم الضمير الاجتماعى ، ويخلق الاتساق والتماثل فى الإرادة العامة ، فالدين هو القوة الكبرى التى تحرك الحياة الاجتماعية والتغير الجوهرى فى المجتمع ، يرتبط بالتغير الذى يطرأ على العقائد والمثل الدينية ، وتخطئ الماركسية حين ترى أن التطور فى وسائل الإنتاج والمبادلة يكمن وراء التغيير الاجتماعى والثورات السياسية ، وليست النفس الإنسانية أو المعرفة المتزايدة بمبادئ الحق والعدل ، فتفرض ماديتها على الجماعة مايسلب الحيوية من الفرد ، فليس فى نبذ الدين مايدل على التقدم كما يدل على التحلل الاجتماعى الذى تظهر آثاره بعد أن تتراجع موجة الإلحاد ، وتحاول البلاد التى نبذت الدين أن تلم شعثها وأن تبحث لنفسها عن ملجأ أمين ، وما من محاولة تبذل لتوحيد القيم الإنسانية وصب الحياة فى قوالب جامدة محدودة لاتقوم على أساس من طبيعة الإنسان إلا وكانت سبباً فى فساد الدولة وسقوطها ، فالمادية تفوق العقل

وتصم الذوق والعادات بالوحشية وتلق سدوف الظلمة على طريق الخلاص .

ولم يشهد الإسلام مثل هذه الثورة على تعاليمه ، ولم تكن اليقظة الإسلامية التى بدأت بالإمام محمد بن عبد الوهاب وتطورت على يد الإمام محمد عبده إلا إحياء للقيم والتعاليم الإسلامية الأولى ، لا قضاء عليها أو إهداراً لها أو خروجاً عليها كما كانت حركة الإصلاح المسيحى فى أوربا ، فليس الإسلام بحاجة إلى إعادة النظر فهو متجدد على الدوام قابل للتطور متلائم مع كل زمان ومكان ، لاينكر الدولة وإن جردها من السلطة على العقيدة ، ولايضيق بالفن والجمال والغنى ، يُعنى بالعلم ويحض عليه ويدفع إلى النظر والتأمل والكشف عن أسرار الكون ، ويدعو إلى تسخير الطبيعة لصالح الإنسان وينظم المصالح المادية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية بصورة لم يصل إليها العالم بعد ، ولم تدم فى تاريخه غير ثلاثين عاماً قصاراً ، ولعله إذ يصل إليها ويعيها قد يتمكن من حل مشاكله والقضاء على أزماته ، ليعيش الناس فى سلام دائم وأخوة صافية على أساس من توفير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية .

الدين والفكر المعاصر :

كان الإسلام ثورة اجتماعية ، كما كان ثورة دينية فعندما أهَلّ على العالم بنوره كانت حالة الجماعات الإنسانية فى الشرق والغرب ، تدعو إلى

الرثاء – كما يقول سيد أمير على – بدرجة يقصر دونها الوصف ، فالكثرة ضعيفة مستعبدة لاتتمتع بأية حقوق اجتماعية أوسياسية ، ففى الشرق كان الكهنة وكبار الملاك فى فارس هم وحدهم أصحاب السلطة والنفوذ ، يستمتعون بالثروة ولايتركون منها سوى فضلة تقيم أود المستعبدين من الرعية ، وفى الغرب كان رجال الدين والصفوة من ذوى السلطان ممن يلوذون بالقيصر والعاهرات من خطاياهم هم الذين ينعمون بالثروة والنفوذ ، والشعب يتمرغ فى حمأة التعاسة والبؤس ويعانى الفقر والعوذ ، وفى بقية المجتمعات الإقطاعية كان السواد الأعظم من الناس إما أقناناً أو أرقاء حتى جاء نبى الإسلام العظيم فنفخ فى بوق الحرية وأعلن المساواة التامة بين البشر وحرر الكادحين من ظلم المستغلين ، وقضى على الفروق الطبقية والتمايز العنصرى والدينى ، وجعل الناس سواء أمام القانون وأمام شريعة على درجة عظيمة من المرونة والبساطة والقدرة على التطور تبعاً لتطور الحياة وتقدمها (١)

وعلينا أن نتساءل ، أما زال الإسلام قادراً على مواجهة التحديات التى تضطرم بها المجتمعات الحديثة ؟ أيملك القدرة على التكيف مع روح العصر ؟ أفى تعاليمه التى بعث بها النبى العظيم من الحيوية والحداثة ماينذر ببعث جديد يعيد إلى النفوس الشاردة الراحة والطمأنينة ويهدى البشرية إلى طريق مستقيم ؟ وهل يستطيع أن يدرأ خلل التوازن فى البناء

Ameer Ali, Sayed: The spirit of Islam, Ch. VII, p. p 268- 269. (١)

الحضارى ؟ وهو الخلل الذى أدى بالحضارات السابقة إلى الانهيار والأفول ، والذى ينذر حضارة العصر – كما يقول برناردشو – بنفس المصير المحزن الذى تردت فيه الحضارات السابقة .

ولعلنا لانستطيع أن نتبين خلل البناء الحضارى القائم مالم نتبين القوى الجديدة التى تلعب دورها الخطير فى هذا القرن الذى يوشك على الأفول ، والذى يحمل فى أحشائه بذرة القرن الحادى والعشرين . وهى قوى تسم التغير بالعنف والشدة لم تشهد الحضارات القديمة ضريباً لها من قبل فى عنفها وشدتها إلا حين أخذ الإسلام يقوض بناء العالم القديم ، و يبشر بقيم جديدة للبناء الإنسانى والاجتماعى لم يعهدها العالم من قبل ، فقد أدى العلم الحديث وانتصاراته الباهرة إلى سيادة النظرة العلمية على العقلية ، فانتقل الإنسان من عصر العقل كما عرفه القرن الثامن عشر إلى عصر الاستقراء والتجريب فى القرن التاسع عشر ، وإلى سيادة التكنولوجيا والتصنيع فى القرن العشرين .

وبقدر ما تقاربت النظريات العلمية والعقلية فى هذا القرن وهو تقارب أدت إليه البحوث العلمية الحديثة فى قوانين المادة والحركة ، بقدر ماتباعدت النظرتان العقلية ، والإنسانية . كما أدت سيادة الدولة القومية إلى [illegible]عة العنصرية والاستعمارية الحادة ، وأدى نمو المذاهب الاقتصادية الجديدة إلى زلزلة القيم الاجتماعية والسياسية القديمة ، وقادت جميعاً إلى هذا التناقض الماثل فى حضارة العصر ، وإن أصبح

للاشتراكية العلمية النصيب الأوفى على غيرها فى هذا التناقض الذى يؤدى إلى الصراع ويمزق الوجود الإنسانى .

وإذا كان القرن التاسع عشر قد باعد بين العلم والدين فإن القرن الحالى بما عرف العلماء فيه من أسرار المادة قد أخذ يقترب بالعلم من الدين ، ويوائم بين قوانين المادة والفكر التجريدى بما كشفت عنه قوانين المادة من اختلاف الذرات فى الطبيعة عنها فى الخلية الحية ، ومن ثبات صورتها واختلاف ذاتيتها ، فبينما تبدو صورة الذرة ثابتة فى كل حالة من الحالات إذ بذاتيتها تتغير فى كل حالة عن الأخرى ، مما حمل « أروين شرود نجر » العالم النمسوى ومن أبرز علماء الذرة والفيزياء المعاصرين على الاعتراف بأن الوعى ظاهرة مفردة لا تتماثل مع غيرها ، وأن الشخصية لا تتكرر وأنها قوام مستقل بذاته . وذلك فى مجال المقارنة بين قوانين المادة وقوانين الفكر [١] ، وأدى هذا التقارب بين قوانين المادة وعالم الفكر إلى عبور الحاجز التقليدى بين ما هو طبيعى وما هو من خوارق الطبيعة ، فهناك من يقول كالدكتور ماثيو مطران كنيسة القديس بولس فى كتابه « مقالات فى البناء » [٢] « بأن بعث المسيح لا يعد على هذا الأساس من

---

(١) Eruin Schrodinger: Science and Human Temperament.

انظر أيضاً : العقاد ، عباس محمود : عقائد المفكرين فى القرن العشرين فى قوانين المادة .

(٢) Dr. W. R. Matheus: Essys in construction

انظر أيضاً العقاد : المرجع السابق .

خوارق الطبيعة أو مناقضاً لها» ، وهنالك من يفسر المعجزة «كهايون كبير» المفكر الهندى المعاصر «بأنها ظاهرة جزئية تؤدى مع غيرها إلى تكوين القانون الكلى الذى يحكم طبيعة الأشياء ، وهو القانون الثابت الذى يجرى على ما نعرف ومالا نعرف [١] ، فالقانون الكلى الذى يتكون من استقرائنا للجزئيات والعلل القانونية التى تبدو فى أعمال الطبيعة لا ينقض العلة الأولى التى تنتهى إليها جميع العلل .

فليس انهيار الدين إذن هو علة الفكر المعاصر ، فقد أخذ العالم يقترب من الإيمان الدينى ، وغدا التوفيق بين العلم والدين تفسيراً للكثير مما يعجز العلم عن تفسيره ، وإنما علة الفكر المعاصر هو فى التناقض العضوى والفكرى فى حضارة العصر ، وهو تناقض لم يكن فى يوم من الأيام بأشد مما هو فى يومنا هذا عنفاً وضراوة ، لا لأن هذا التناقض قد بلغ من الحدة والعنف ماليس له مثيل من قبل ، ولكن لأن هذا التناقض بقدر ماهو فكرى قد اتخذ قالباً عضوياً يتعذر معه التوافق والاتساق أمام نظم سياسية واجتماعية صارمة ، فالإنسان – هذا الكائن المتميز – يفقد ذاته حين يفقد التميز فى خضم من التناقض الفكرى والاجتماعى ، وحين يرى نفسه مجرداً من الحرية تحت ضغط الهلع والخوف والفزع من المستقبل الذى يصل به إلى اليأس والاستسلام لمصير غامض مجهول .

إلا أن هذا التناقض بقدر مايبدو فى ظاهره قاهراً غلاباً لايعدو كونه

---

(١) همايون كبير وترجمة عثمان نويه : العلم والديمقراطية والإسلام الفصل الأول .

تناقضاً فى الشكل أكثر منه فى الجوهر ، وفى طبيعة المنفعة أكثر منه فى حافزها ، وفى أسلوب النظام السياسى والاجتماعى أكثر منه فى طبيعته ، فالحضارة الأوربية حضارة مادية تؤمن بالمنفعة ، إلا أن أسلوب المنفعة دون طبيعتها هو الذى يحكم التناقض بين الانظمة السائدة فيدمغها بالازدواجية التى تحكم الصراع بين النقيضين .

ويتمثل هذا الازدواج فى انقسام العالم المعاصر إلى جبهتين متنافرتين تقف كل منهما من الأخرى موقفاً يشيع الذعر فى قلوب الطرفين من كارثة الدمار النووى الشامل للحضارة والإنسان معاً ، بعد أن امتد التناقض إلى خارج القارة الأوربية ولم يعد مقصوراً عليها وحدها وامتد معه الصراع ليشمل العالم كله .

وبقدر مايبدو هذا الازدواج ظاهرة عصرية هى نتاج الامتداد الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية بقدر مانرى التناقض موغلاً فى القدم إلى أبعد من ذلك بقرن من الزمان ، حين غدا العالم بعد عام ١٨٤٨ ملكاً للطبقة الوسطى من رجال الأعمال والصناعة ومن تبعهم من الحرفيين وأصحاب المهن ، ولم يعد للطبقات العليا من النبلاء والقسس من ملاك الأراضى ما كان لها من جاه وسلطان بعد أن حطمتها الثورة الصناعية ، فأخذت صفحة الصراع الاجتماعى صورة جديدة انتقلت بها إلى ميدان آخر أصبح اللاعبون فيه الرأسماليون الذين أفرزتهم الثورة الصناعية وانتهت إليهم السيطرة على سوق المال والصناعة من ناحية

وعمال المصانع وهم بدورهم نتاج الثورة الصناعية أيضاً ، إلا أن مصالح الفريقين أصبحت من التناقض بحيث ضاعفت أسباب الصراع القادم وأسلوبه وغاياته، وغدا هذا الصراع طابع الحضارة القائمة ، وكانت الماركسية هى النداء الجديد لعمال المصانع ضد الرأسمالية الصناعية الجائرة .

وقد تبدو الماركسية أو الاشتراكية العلمية بلفظ آخر ثورة خلابة على عبودية الآلة والاستقلال الرأسمالى البشع ، ولكنها تسفر عن ضلالها فى تقويضها للقيم القديمة وهى تراث الإنسانية فى تطورها نحو حياة أفضل وفى أفكارها للإنسان الفرد وإيمانها بحياة القطيع ، وفى تصورها وتقصيها العلمى الذى يبتعد بها عن التقدير العادل للقيم وللقانون العلمى الذى يؤكد من القيم بما يكشف عنه من أسرار الكون أكثر مما ينتقصها ، وفى إعلائها لعالم المادة على عالم الروح .

ولعل ميزة ماركس على غيره من فلاسفة القرن التاسع عشر أنه نفذ إلى المستقبل بنظرة أكثر عمقاً ووعياً لمشكلات العصر الصناعى الجديد ، وإن لم ينظر إلى المستقبل تلك النظرة الفاحصة التى تتسم بالسعة والشمول والتقدير العميق لما يمكن أن يسفر عنه البحث العلمى من تقارب بين قوانين المادة وقوانين الفكر المجرد ، على حين بلغ من تقديره للقانون العلمى أن أخضع الفكر للقانون العلمى وأنكر منه مايناقضه ، وحمله الواقع التاريخى على صياغة قوانين المادية التاريخية دون وعى منه بجوهر

التاريخ ، كما غاب عنه ما يمكن أن يفسر عنه نظام العمالة من تقارب وتوافق مع نظام الإنتاج ، وما يمكن أن تتطور إليه الرأسمالية الصناعية للإبقاء على ذاتها من تقارب مع الطبقة العاملة ومع قوانين السوق واتجاهات الاستهلاك .

وقد واجهت الماركسية كغيرها من الفلسفات قديماً وحديثاً مشكلات عصرها ، ولكنها واجهتها بحلول عملية فأتيح لها دون غيرها من فلسفات العصر الذيوع والانتشار لا فى روسيا وحدها ولكن فى بقاع عديدة من العالم المطحون فى أوربا وفى الشرق الأقصى ، وتحاول أن تجد لها قدماً فى أفريقية وبين بلدان الشرق الأوسط حيث يقف النظام القديم عائقاً دون التطور وأثرة الطبقة الحاكمة حائلاً دون تحقيق الخير العام للمجموع .

وبانتشار الشيوعية وامتدادها أخذت الحضارة الأوربية – وقد أصبحت حضارة عالمية – طابعاً جديداً يختلف تماماً عن الطابع القديم فى قيمه ومثله وفلسفته الأخلاقية والدينية والسياسية ، واستند هذا الطابع إلى قوة الدولة وإلى التنظيم الحزبى الدقيق للأحزاب الشيوعية فى الخارج ، وإلى إيمان جارف حاد بعقيدة مادية حلت محل الإيمان الدينى القديم ، وواجه العالم هذا الازدواج الماثل فى نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفى قيمه الأخلاقية والدينية ، وهو ازدواج لا يسلم أحد طرفيه للآخر إلا بفنائه وزواله ، ولن يجدى ما تبدعه السياسة من أساليب التعايش السلمى أو الوفاق أو اتفاقيات الحد من الأسلحة

النووية فتيلا أمام القيم التى يتعصب لها كل من النظامين قبل الآخر

وجمعت الشيوعية بصورة فريدة بين الاستعمار الإمبراطورى القديم وبين السيطرة الفكرية التى تمنحها العقيدة قدرة على الاستمرار وضراوة التعصب ، فحيث تتوسع تكون لها السيطرة على جهاز الحكم ، وحيث تكون لها السيطرة تعتمد على المتعصبين من شيعتها وتبدو كأنها دين جديد يهدم ماقبله ويقوضه تماماً .

وللشيوعية من القدرة على الاستبداد بعقل الفرد والسيطرة على روح الجماعة ما يحول الاتجاه نحو الشيوعية إلى اعتناق الشيوعية ، فالشيوعية لاتقبل ثنائية العقيدة وحين تسود بنظاميها السياسى والاقتصادى أو بنظامها الاقتصادى دون السياسى فإنها تنتهى بهما أو بأحدهما إلى سيادة العقيدة ، ولعل انتشار الشيوعية بين شعوب الشرقين الأوسط والأقصى وغيرها من البلدان النامية لم يكن بسبب الإيمان بالعقيدة الشيوعية بقدر ماكان بسبب الاتجاه نحو الشيوعية حلاً لمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، وهو اتجاه ملىء بالعقد النفسية والمرارة التى تحكمه من معاناة الاستعمار الغربى بمساوئه واستغلاله البشع للأرض والإنسان ، ولم يكن للحرج الدينى الذى تحسه شعوب لها تقاليدها الدينية العميقة أن تضحى بمصالحها المادية وآمالها فى مستقبل أفضل فى سبيل القيم أو تتنكر لآمالها فى التقدم فى سبيل ما هو تقليدى ، ورأت أنها تستطيع أن توائم بين مايستهويها من النظم الاقتصادية والاجتماعية فى الشيوعية وبين تراثها الماضى

فى الدين والأخلاق ، ولم يتجه « تشين تيوهسن لى » و « لى فشاو » مؤسسا الشيوعية الصينية إلى الماركسية عقيدة تخلف الكونفوشية ، وتحل محلها ولكنهما رأيا أن يوفقا بين التقاليد الكونفوشية العريقة وبين مايستهويها من الحلول الاقتصادية والاجتماعية فى الشيوعية للنهوض بالصين ، فوضعا بذرة التحول إلى الشيوعية المطلقة نتيجة عاملين أساسيين ، أولهما تبنى الاتحاد السوفيتى للثورات الاجتماعية فى الشعوب النامية بدعوى القضاء على « الإمبريالية والرأسمالية المستغلة » وثانيهما ، استغلال الطموح الذاتى لدى بعض الزعماء فى الدول النامية أو فى غيرها لتحقيق مآربها وأهدافها البعيدة فى تحويل هذه الدول إلى توابع تدين بسياسة السوفييت وتسير فى فلكها .

وقد أدرك السوفييت فى الآونة الأخيرة قدرة الإسلام على التصدى للشيوعية بقدرته على التطور ومواءمة التقدم وبما تحمله نظرته العلمية وشريعته السوية من قدرة على حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وسياسة الدولة ، إذ يوائم بين المادية والروحية والواقع والفكر مواءمة تعجز عنها الماركسية كما عجزت عنها المسيحية والكونفوشية ، فأخذوا يتحاشون لتصدى له وينكرون أن الشيوعية تجفو تعاليمه ، إلا أن الماركيسية وهى تبشر بدين جديد قد تبذ المسيحية فى تعدد الجوانب التى تتناولها وتقصر المسيحية عنها ، إذ تخوض فى طبيعة الدولة والمجتمع والحياة الاقتصادية وتطور التاريخ وفيما وراء الطبيعة وفى القيم وفى الإنسان مما نبذه الفكر

المسيحى أو ذهب إليه النقيض منه ، ما يعبر عنه ماركس بقوله : « إن الخيالات القائمة فى رأس الإنسان ليست إلا أغراضاً طارئة لسلوكه المادى اللازم لحياته ، فالأخلاق والدين والميتافيزيقا والنظريات المجردة العامة وما يند عنها من أشكال الشعور ليست فى الحقيقة مستقلة فى ذاتها » وهو نفسه ما حمل المفكر الروسى المسيحى « بردياييف » فى كتابه « الحلم والحقيقة » على أن يحمل المسيحية تبعة ظهور الشيوعية فيقول بأن « المسئولية الكبرى فى ظهور الشيوعية تقع على عاتق المسيحية التاريخية وعلى المسيحيين الذين عجزوا عن القيام بواجبهم » .

وتجد الشيوعية من روح العصر زادا للنمو والتوسع والاستمرار وإن وضعت البشرية على حافة الهاوية التى تنذر الحضارة القائمة بأبشع مصير ، ولكنها تقف من الإسلام والمسلمين موقفاً آخر حين تثير بين المسلمين قضايا القهر والاستعباد والتسلط وفساد الحكم بين الشعوب الإسلامية ، ولا تأبى أن تحالف بعض الطوائف الإسلامية ، ولم تعد تخوض فى فلسفة الفكر بقدر ما أخذت تخوض فى خلق العدالة الاجتماعية التى تعوق الدول الإسلامية عن التقدم بسبب فساد أنظمتها السياسية والاقتصادية دون عقيدتها الدينية كما تدعى .

الإسلام وروح العصر

مامن عقيدة يرجى لها البقاء والاستمرار إلا وكانت هدياً للكمال الإنسانى فى كل جوانبه المادية والروحية ، لا تختلف فى ذلك الأديان السماوية أو غير السماوية ، فقد وجد الإنسان على الأرض ليعيش ويسعد ويستريح ، يتوافق عقله مع وجدانه وتستقيم مأثوراته مع عقله ، فلا يتباين ماهو قائم مع ماهو معقول ولا تنفصل فيه الإرادة عن الثقة بصحة ماهو قائم ، فليس كل ماهو قائم مما يتوافق مع الفكر أو مع العقل ، فإذا اختل التوازن بينهما كانت الحيرة التى تهدد الإرادة بالخلل والتناقض ، وحين تختل الإرادة عند الإنسان فإنها تحدو العاجز إلى الهروب من مواجهة الواقع فتكون الجماعات المنحرفة كجماعة توم جونز [1] التى ارتضت الانتحار الجماعى فراراً من الحياة ، أو جماعة « مانسون » [2]

---

(١) جماعة أطلقت على نفسها اسم جماعة « معبد الشعب » تزعمها أمريكى يدعى جيم جونز واتخذ لها مستعمرة فى جوبانا بأمريكا الجنوبية وكان جيم جونز قسيساً سابقاً أقبل هو وجماعته على الانتحار الجماعى ، بعد أن قتلت جماعته أعضاء لجنة التحقيق الأمريكية التى زارت المستعمرة لتقصى حقيقة الجماعة .

(٢) جماعة ممن يعرفون بالهيبز تزعمها مانسون ، ارتكبت عدداً من الجرائم أبرزها جريمة مقتل النجمة السينمائية شارون تيت وقد اتخذت لنفسها مستعمرة فى كاليفورنيا عاشت فيها حياة غريزية بهيمية حتى اعتقل أفرادها بتهمة القتل .

التى نزعت إلى حياة بهيمية اتسمت بالانحلال والعدوان ، كما تحدو المفكر إلى آفاق من الخيال الحالم بعالم طوبائى لا يستقيم فيه الواقع مع الحلم ، وقد تدفع رجل الدين إلى التعصب حفاظاً على العقيدة ، كما تدفع رجل الدولة إلى البطش حفاظاً على النظام .

وحتى تبقى العقيدة – أى عقيدة – حية قائمة مستمرة ، لابد أن تكون على درجة كاملة من المرونة لتتوافق مع كل جيل ومع كل عصر ، فالحياة الإنسانية دائمة التغير وهى فى تغيرها تخضع لقوانين ثابتة من التطور ولقدرة الإنسان على التغيير الذى يتوافق مع التطور فلا يشده إلى الوراء ، فأى جمود للإنسان أمام قوانين التطور والتغير يؤدى إلى الخلل ومن ثم إلى التناقض بين من يعرفون بالمحافظين ومن يعرفون بدعاة التجديد .

وقد ظل الإنسان طوال تاريخه على سطح الأرض يجابه ثلاث قوى يصارعها وتصارعه هى صراعه مع الطبيعة وصراعه مع الآخرين ثم صراعه مع نفسه .

فأما صراعه مع الطبيعة فقد كانت غايته الحصول على الطعام ، وهى غاية مازالت قائمة حتى وقتنا هذا ، وعندما اكتشف النار وعرف الزراعة عرف كيف يؤمن نفسه من الجوع وكيف يخيف أعداءه من الكواسر ، فلما أمن شر الكواسر ، سيطرت عليه غريزتا الطمع والراحة ولعل الراحة هى التى حملته على الطمع ، فالاستيلاء على مالدى الغير

أيسر سبيلاً من السعى وراءه ، فاستنبات الأرض ورعاية الزرع وحصاده ، أشق حقًّا من نهب مازرع الآخرون ، فكانت غارات القبائل والعشائر القوية من السكان لنهب أراضى القبائل والعشائر الضعيفة أول بوادر صراع الإنسان مع غيره .

وبقى صراع الإنسان ضد الإنسان ، وهو صراع كانت صورته البارزة : القتال والاسترقاق ، فالقتال لقهر الخصم والاسترقاق لمن بقى من المهزومين حيًّا ، وتطور الصراع بين الإنسان والإنسان مع تطور الجماعات البشرية حتى بلغ أوجه بظهور الإمبراطوريات القديمة والدول القومية الحديثة ، حتى أخذ صورته العالمية فى الوقت الحاضر بين ما يعرف بالشرق والغرب ، أو المجموعة الشيوعية والمجموعة الرأسمالية .

وأخذ صراع الإنسان ضد الإنسان صوراً جديدة تطورت هى الأخرى مع الزمن من الصراع الدينى إلى الصراع الطبقى بعد أن أخذ أقنان الأرض يثورون ضد مستعبديهم ، وأخذ عمال المصانع يجأرون بالشكوى ويتجمعون فى نقابات أو اتحادات ترفع شعار التجمع ضد أصحاب الأعمال .

أما صراع الإنسان مع نفسه فإنه صراع يدور فى عقل الإنسان ذاته وإن برز فى صور شتى تنعكس على علاقة الفرد مع الغير ، فالخير والشر أصيلان فى طبيعة الإنسان ومنهما تبرز نظرية الثواب والعقاب والفضيلة والرذيلة ، كما تبرز القيم الأخلاقية قبل ماهو لا أخلاقى . ولعل أبرز صورة

فى المجتمعات الحديثة هو الخوف ، وليس الخوف من المجهول كما كان عند الشعوب البدائية ، ولكنه الخوف مما هو ماثل وقائم بعد أن غدا الإنسان أكثر إدراكاً لما حوله ، فالخوف من نضوب الموارد الطبيعية . والخوف من الانفجار السكانى الذى يهدد العالم بالمجاعة ، والخوف من تلوث البيئة نتيجة للتراكمات الصناعية ، والخوف من الحرب النووية . وهذا الخوف الذى يبدو فى صورة جماعية ينعكس على الفرد فى ألوان من القلق تفقده الثقة فى نفسه وفى مصيره ، وتجعل منه فرداً عاجزاً عن مواجهة الحياة أكثر ميلاً إلى الهروب المباشر بالانتحار أو الهروب غير المباشر بالانحراف .

وإذا كان الإنسان فى صراعه مع الطبيعة قد استطاع أن يحد من طغيانها ، وأن يتخذ من القانون العلمى أداة لمحاكاتها وتذليل عناصرها وإن ظل عاجزاً عن إدراك نهاياتها ، فإن النظرة العلمية هى التى سادت وأصبح كل مايخالفه من قبيل الخرافات البالية ، وغدا بقاء العقيدة الدينية رهناً بالتوافق مع النظرة العلمية ومجاراتها ، وإذا كان صراع الإنسان مع غيره قد قيدته وحكمته القوانين والشرائع على اختلافها ، فإن بقاء هذه القوانين والشرائع رهن بالتطور الاجتماعى والاقتصادى فى أى جماعة إنسانية ، بل إن القيم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الجديدة قد غدت نهباً للصراع الحاد بين الجماعات التى تدين بها كالصراع الحاضر بين المذهبين الشيوعى والرأسمالى على صفحة العالم الحديث . فإن لم يكن من

الدين علاج ووفاء من هذا التمزق والصراع الذى يهدد العالم بالبوار والفناء ، فإن النهاية المفجعة هى ختام هذه الحضارة القائمة .

وإذا لم يجد الإنسان فى صراعه مع نفسه من الدين مايحميه بالإيمان والثقة والأمل والصبر واليقين من القلق والتمزق الفكرى والضلال العقلى ، فإن الدين يغدو ذكرى بالية فى تاريخ الإنسان .

ولعل الأمل الذى يراود الإنسانية فى التوفيق بين الدين وروح العصر ماينعقد عليه الرجاء الآن فى قدرة الإسلام على مواجهة تلك التحديات التى يثور بها ضمير العصر.

جوهر الإسلام :

جاء الإسلام هادياً للنفس البشرية من نوازع الضلال والشرك ، مؤتلفاً مع الطبيعة البشرية لايشذ عنها ، مصدقاً للعقل والعلم ، حاثاً على كشف أسرار الكون والسيطرة عليها ، وشرع من الدين ماشمل الدنيا فأرسى قواعد الأخلاق على أساس من توقير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية ، وأقام قوانين الوجود على أساس من التأمل والعقل ، ونظم العلاقات الاجتماعية والواجبات الإنسانية على أساس من الواجب والمسئولية وحدد المثوبة والجزاء ، فتجزى الحسنة بعشرة أمثالها عند الله ، وتجزى السيئة بمثلها ، وربط مابين الدين والحياة برباط من الوحدة والاتساق لايشذ فيهما الواحد عن الآخر ولا يتنكب الإنسان فى أحدهما

سبيل الخير ، فكان دين الفطرة عن حق ، فلو ترك الطفل وشأنه حتى يكبر لما اختار غير الإسلام ديناً - كما يقول الشيخ عبد العزيز جاويش[1] - ذلك لأنه لايناقض الطبيعة البشرية فى حاجتها إلى الإيمان القائم على العقل ويعلى من شأن الخير ، ويسمو بالنوازع البشرية إلى العمل الصالح .

ويقوم جوهر الإسلام على الوحدانية وهى الإيمان بإله واحد لاشريك له ولا كفاء ، والإيمان بإله واحد يؤدى إلى الإيمان باتساق خلقه ، وهو مانعبر عنه فى مضمار العلم باتساق القانون الطبيعى ، فما لم يكن الكون واحداً لما كان هناك قانون كلى واحد ، وهو مايفسره المفكر الهندى المعاصر « همايون كبير »[2] بأن « الكون إذا كان ملكاً لآلهة مختلفين ، أور بما متنافسين يتنازعون السلطان ، فإن من البديهى فى هذه الحالة ألا توجد قوانين متسقة تحكم الكون . . وهذا الاعتقاد بوحدة الطبيعة يعبر عن نفسه أول مايعبر فى الإيمان الدينى . . فالإله الواحد معناه كون واحد ، وإذن فمعناه أيضاً قانون واحد » وهو مايدركه العقل ويستريح إليه الوجدان ، وما نجمله الآيات الكريمة :

(الله لاإله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولانوم له مافى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين

---

(١) الإسلام دين الفطرة .

(٢) العلم والإيمان والمعرفة ، ترجمة عثمان نويه .

أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) البقرة ٢٥٥ .

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) الأنعام ١٠٢ – ١٠٤ .

هذا هو الله جل جلاله فى الإسلام واحد أحد لاشريك له ولاكفاء ، ولايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، وهذا هو جوهر الإيمان فى الإسلام ، معرفة صافية فى إدراك وحدة الخالق فى اتساق خلقه فلا يضل عنها إنسان .

الإسلام والعلم :

فى سؤال طرحته مجلة نيوزيك الأمريكية وأشار إليه الأستاذ أحمد أبو الفتح فى صحيفة الأخبار فى مقال بعنوان « يقظة الإسلام »[١] قالت فيه : « السؤال الآن بالنسبة للإسلام هو ماإذا كان النظام الذى وضعه الله ورسوله يستطيع إنتاج مايحتاج إليه الإنسان من سلع مثل تقويم الأخلاق » وتستمر المجلة فى تساؤلها فتقول : « والسؤال الأكبر هو ماذا يستطيعه ستمائة مليون مسلم لمواجهة التحدى الذى حققه العلم الحديث

---

(١) الأخبار . عدد ٨٣٠٢ فى ٢٣ يناير ١٩٧٩ .

من تقدم لم يتنبأ به الرسول ؟ » .

وهو سؤال من غير ذى معرفة فليس مَن شأن الدين – أى دين – أن يقنن لوسائل الإنتاج وأنماطه ، وليس له أن يبحث فى البيروقراطية والتكنوقراطية التى تسير المؤسسات الإنتاجية الكبرى ، ولكن الدين حين يحض على العلم يدعو إلى التأمل والتفكير ولايحجر على العقل ولايتناقض مع الواقع ويقيم الأساس الأخلاقى للتقنين الاجتماعى فى تطوره ونموه على الزمن ، فإن هذا الدين لايملك القدرة على مواجهة التحدى لكل عصر من العصور فحسب ، وإنما يملك بالتالى القدرة على صنع التقدم فى كل عصر من العصور ، لأنه يقوم فى جوهره على الاتساق الذى يتميز به القانون العلمى . فقد جاء الإسلام مبشراً بوحدانية خالصة لاترقى إليها ديانة أخرى ومؤكداً لوحدة الكون واتساقه فحرر الدين من الحماس العاطفى وأخضعه لمقررات العقل ، ولم يلجأ إلى المعجزات والخوارق لإثبات رسالته ، فقضى على الحد الفاصل بين ماهو طبيعى وما هو من خوارق الطبيعة ، وأكد وحدة الكون فى وحدانية الخالق وفى اتساق قانونه الأزلى ، فحين ظن المسلمون أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم ، قام محمد الرسول ﷺ يقول : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » .

ويؤدى الإيمان باتساق الطبيعة ووحدة القانون الطبيعى إلى تقدم

العلم ونموه ، حيث لاتوجد علة بغير معلول أو خارقة لايقبلها العقل لشذوذها عما تجرى به سنة الكون منذ الأزل ، وهى سنة يؤكد الإسلام ثباتها واستمرارها ، وإنها لاتخضع لتغيير أو تبديل ، فلن تجد لسنة الله تحويلاً وهى سنة تجرى على مانعلم من هذا الكون الفسيح وما لانعلم بعد ، حيث يفترض فى القانون العلمى أنه يسرى على كل مايقع تحت الملاحظة أويغيب عنها ، إلا أن الإيمان باتساق الطبيعة وإن أدى إلى الإيمان بوحدانية الله ، فإنه لايكفى لصحة القانون العلمى الذى يقوم على التجريب والاستقراء ، وهو ماكان من فرق بين الإيمان العقلى للقرن السابع عشر والإيمان بالعلم فى القرن التاسع عشر وما بعده ، فالتفكير العقلى استنباطى يقوم على التأمل ، والتفكير العلمى استقرائى يقوم على التجريب ، لذلك كان الاهتمام بالجزئى أساساً لتحقيق الكلى وإثبات صحة كل قانون عام ، وهو الذى أدى إلى تقدم العلم حيث تؤدى ملاحظة جزئيات عديدة إلى نظرية عامة ، فإذا هوم العقل فى أجواء فسيحة من التأمل والاستنباط فإن التجريب يشده إلى الأرض ، وينقله من النظر فى الحقائق العليا إلى تدبر المجد الدنيوى مما يؤدى إلى تحطيم الحواجز بين ماهو دينى وماهو دنيوى ، إلا أن مايعجز عنه العقل يعجز العلم عنه بدوره ، وقد أدرك الإنسان بعد أن ولج به العلم آفاقاً ماكانت ترد له على بال أو خاطر فرصد الأفلاك واخترق الفضاء ، ونزل على القمر وراء الكواكب الأخرى للمجموعة الشمسية وإنه مازال عاجزاً

عن إدراك حقيقة هذا الوجود ، حيث رأى فى هذا الكون الهائل مالايدرك مداه ، ففاض إيمانه المطلق بقدرة العلم وأنزله من علياثه التى حلق فيها طوال القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ليضعه معه على الأرض ، ولم يعد العلم نقيضاً للدين وهو مايراه « ألبرت أينشتين » فإن العلم – كما يقول – يتناول ماهو كائن لا ماينبغى أن يكون فلا تدخل القيم فى نطاقه ، كما لايدخل البحث فى الحقائق وما بينها من علاقات فى نطاق الدين » .

وبالرغم مما يراه أينشتين من انفصال العلم عن الدين فى ميدان البحث ، فإنه يرى العلاقة بينهما قوية متبادلة ، وأن كلا منهما يعتمد على الآخر فى بعض نواحيه ، فالدين يحدد غايته وهدفه ولكنه يأخذ عن العلم الوسائل التى يصل بها إلى غايته وهدفه ، والعلم لايدركه ولايكشف عنه غير المنتشين بحب الحق والإدراك السليم وهو شعور ينبع من الدين ، كما ينبع منه الإيمان بأن القواعد التى تجرى على الوجود مما يمكن إدراكها بالعقل ، فيقول : ولا أستطيع أن أتصور عالماً حقًّا بغير هذا الإيمان العمق ، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بأن : العلم بغير دين أعرج ، والدين بغير علم أعمى .

وعلى هذه الصورة التى عبر عنها أينشتين ، وشرودنجر ، وهمايون كبير وغيرهم من مفكرى العصر ، لانرى ثمة تناقضاً بين الدين والعلم فى الحضارة الإسلامية قبل أن تبور فيها النظرة العلمية وتزحف الخرافة على معالم الدين .

ويرى همايون كبير[1] أن ابن رشيد وهو من أعلام الفلسفة الإسلامية كان يصر على اتساق الطبيعة واطراد قوانينها ، ويرى أنه قدم للإسلام ماحاول سبينوزا أن يقدمه لليهودية ، وقد سبق ابن رشد سبينوزا فى هذا المضمار ، وكان كلاهما من أرباب الفكر الرياضى ، ولعل سيبنوزا قد تأثر به كما تأثر علماء النهضة الأوربية به وبغيره من علماء الأندلس .

ويرد همايون كبير تقدم العلم فى ظل الإسلام حين رد الإسلام العقيدة والإيمان إلى العقل والمنطق ، فإذا تجرد الدين من العقل والمنطق وقام على الإيمان والتسليم فإنه – كما يقول – يبقى عرضة للاختلافات الناجمة عن اختلاف شخصية الأفراد وأمزجتهم . فإذا قام الإيمان على العقل نضبت موارد الخلاف ، لأن العقل بطبيعته كلى ، والحق هو مايقبله العقل .

لذلك قامت الدعوة إلى الإسلام على العقل والنظر العقلى ، وإذا قامت الدعوة على العقل والنظر العقلى ، فإنها تخلو من العنت والإكراه وتقوم على المسالمة والإقناع :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) النحل ١٢٥ .

وليس للنبي أن يكره الناس على الإيمان ولكن عليه أن يدعوهم إليه :

---

(١) العلم والإيمان والمعرفة جـ٢ ص ٢١ .

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كُلُّهُمْ جميعاً ، أفأنت تُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس ٩٩ .

وتأخذ الدعوة بيدهم إلى التأمل والنظر العقلى :

(وإلهكم إلهٌ واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) البقرة ١٦٣ – ١٦٤ .

(قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) الأنعام ١٠٤ .

وكثيراً ماحفل القرآن الكريم بمثل ذلك : لآيات لقوم يعقلون ، لآيات لأولى الألباب ، لآيات لقوم يتذكرون ، فالإسلام لاينكر العلم ولايجفوه وليس فى القرآن الكريم مايشير إلى هذه الجفوة ، بل إن آياته الكريمة لتحفل بكل مايدعو إلى التأمل والتفكير ، وفى الحديث « اطلبوا العلم ولو فى الصين » مايعنى المعاناة فى طلب العلم ولايعنى العلم الدينى فليس فى الصين مايطلبه المسلمون للتفقه فى أمور دينهم ، وإنما يعنى العلم الطبيعى كما هو معروف ، فإذا جاء القرآن حاثًا على النظر فى آيات الله وفى بديع صنعه فإنه يدعو إلى النظر فى هذا الكون الرائع والسنن التى تحكمه والكشف عنهاومعرفتها ، وما العلم إلا كشف عن هذه السنن الأزلية

ليعيش الإنسان فى هذا الحيز الضيق المحدود من هذا الكون الهائل عارفاً به متسقاً معه مسخراً إياه لمطالبه وغاياته .

وليس العلم بقادر على أن يسد حاجات البشر ، وإن مكنهم من تحقيق الكثير مما ينشدونه ويتطلعون إليه ، فإذا كان قد قدم لهم الآلة والكثير من المخترعات التى يسرت لهم سبل حياتهم ، فإنه ما كان يستطيع أن يقدمها لولا المعرفة العلمية التى كشفت للإنسان عن قوانين المادة والحركة والجاذبية وهى قوانين أزلية ليست من صنعه ، فلما كشف عنها استطاع أن يحاكيها فيما يخترع وينتج ويصنع إلا أن هذا العلم بقى قاصراً عن تقديم الحلول لمشكلاته الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية وهى التى يقوم عليها نظامه الاجتماعى ، وقد تناولها الإسلام من كافة نواحيها بتفصيل محكم .

الإسلام والنظام الاجتماعى :

لايقف الإسلام ضد التقدم الاجتماعى وليس فيه مايأخذ جانب السلطة ضد الفقراء والكادحين أو المساكين بلغة القرآن ، بل كان عوناً لهم على حقوقهم فأنصفهم قبل أن ينصفوا أنفسهم ، ومن قضاة الإسلام من وقف فى الحق لضعيف ضد الخليفة نفسه ، وأنكر الإسلام الطبقية حين نبذ القبلية والعنصرية والتفاخر بالأنساب والأحساب والجاه وسعة الرزق . وإن لم ينكر التفاوت فى المآثر وفى التميز العقلى والخلقى .

وسوى بين الناس جميعاً فى أخوة إسلامية جامعة ، ونبذ القبلية والشعوبية ، وقال بالدولة العالمية التى تسود فيها شريعة الحق وقوض تراكم رأس المال والملكية الخاصة بما قرره من أحكامها وسدد ضربة قاضية إلى العبودية والقنية والرق .

ولقد كان لانهيار القيم المسيحية فى عالم يدين بالمادية وعجزها عن التوافق مع العلم والمجتمع الصناعى النامى ما أدى إلى الخواء الروحى الذى تعانيه الحضارة الغربية اليوم ، وأخفق العلم كما أخفقت المثل الجديدة للعالم الصناعى فى إبداع قيم جديدة تحل محل القيم المسيحية المتداعية ، وغدت المنفعة تعبيراً عن المادية الجديدة فى صورتها العلمية والصناعية ، فحيث أدى العلم إلى الإيمان الكلى بالواقع فقد أدت سيادة الآلة إلى مجتمع تحكمه القدرة الصناعية كما تحكمه آمال القائمين على الصناعة من العامل إلى الممول ، وحين اختلف العامل والممول حول عائد الإنتاج نشب الصراع بينهما ، وهو صراع تحكمه المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، وهو صراع لايقبل المهادنة ، وقد أصبح فى صورته الحاضرة صراعاً دوليًّا يهدد الحضارة بالفناء على مذبح الطمع والأنانية والتعصب البغيض ، حين يقود العالم إلى حافة المواجهة النووية فيتردى فى الهاوية التى ابتلعت الحضارات السابقة .

وبانهيار القيم المسيحية نزع الغرب عن نفسه كل ماهو روحى وجعل من الوجود المادى أساساً لتفكيره ، ومن العلاقات التى تحكمه أساساً

لسلوكه فأقام حياته على المنفعة فى واقعها الاجتماعى والاقتصادى ، فكانت قاعدة للأخلاق وقواماً للعلاقات الاقتصادية والسياسية التى تحكمه ، وكانت حضارته نقيض المحبة المسيحية ، وماشرع الإسلام قاعدة للنظام الاجتماعى حين يوائم بين الدين والعلم ، ويزاوج بين الروح والمادة بما يدعو الإنسان إلى إدراك صلته بالوجود ومكانه منه ، ليكون العقل قوام إيمانه ، فإذا بلغ الإيمان منه مبلغ اليقين العقلى فغذاه بالمثل السامية فى الأخلاق والسلوك لتكون قاعدة حياته اتسق فكره مع بنائه الاجتماعى ونظامه الاقتصادى لتقوم الحضارة على توفير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية ، وهما القاعدتان اللتان يقوم عليهما نظام اجتماعى سليم ماثلة فى ثلاثة مبادئ أساسية هى المساواة والإخاء والمسئولية والواجب [١] وهى قوام ما يعرف الآن بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية .

وحين يتوخى النظام الاجتماعى هذه المبادئ الأساسية صادقاً فإنه يحقق البناء السياسى السليم كما يحقق المبادئ التى يدعو إليها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ عن الأمم المتحدة ، وقد سبق الإسلام كل ذلك فى مقرراته منذ خمسة عشر قرناً .

وتقوم المساواة فى الإسلام على جانب ثابت من العقيدة وهو أن الناس سواسية أمام الله من حيث الواجب ومن حيث الجزاء ، ثم تؤكده الفروض والعبادات كما قررتها أركان الإسلام الخمسة ويجرى تطبيقها فى

---

(١) انظر الإسلام والسياسة للمؤلف .ص ٨٤ .

الحياة العامة وفقاً للروح التى جاء بها الإسلام ، فالناس سواسية كأسنان المشط . ولافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا أبيض على أحمر إلا بالتقوى ، فحطم بذلك التفرقة العنصرية والتمايز فى الحقوق والعلاقات الاجتماعية والمعاملات اليومية بين الناس فى حياتهم العامة والعادية ، وترد الآية الكريمة (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) لتجب التفاوت العنصرى والطبقى بين الناس ، وتقضى على التمايز والاستعلاء بين الشعوب والقبائل ، فجاء مبشراً بالوفاق العالمى ، والتعاون الدولى للخير العام

وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، ولم يفرق بينهما إلا فيما تقتضيه طبيعة كل منهما من أعمال وتكاليف وضمان حقوق المرأة قِبَل الرجل وقِبَل المجتمع ، فكفل لها استقلالها الاقتصادى وحقها فى الميراث والتصرف فيما تملك ، كما جعل لها رأياً قد يعلو على رأى الرجل فى حديثه «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» . . مما أصبح أساساً لحقوقها السياسية فى العصر الحاضر ، ولم يفرق الإسلام بين المسلم والذمى ، فالذميون لهم مثل ما للمسلمين من حقوق فى بلاد الإسلام وعليهم مثل ماعليهم من واجبات ، ومما يؤثر عن النبى ﷺ قوله : « من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار » وقوله : « من آذى ذمياً فقد آذانى » ، وأدان بذلك التعصب الدينى ونهى عنه ، ومما ينسب إلى

ثانى الخلفاء الراشدين عمر قوله : « أوصى الخليفة من بعـــــدى بأهل الذمة خـيراً ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم » ، وقد بذل من بيت المال ليهودى فقير يتكفف ، ثم يضع للقضاة دستوراً ، مازال فى زمننا هذا نبراس القضاء العادل فى كل دساتير الحكم ، فنى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى وهى الرسالة التى جمعت أكثر أحكام الإسلام فى القضاء يقول : « آس – أى سو – بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك ولاييأس ضعيف من عدلك » ، وفى وصيته للخليفة من بعده يقول : « اجعل الناس عندك سواء لاتبال على من وجب الحق ، ثم لاتأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والمحاباة فيما ولاك الله » وقد سئل عما يحل للخليفة من مال الله ، وهو مايقابل الميزانية فى الدولة الحديثة ، فقال : « إنه لايحل لعمر من مال الله إلا حلتين ، حلة الشتاء وحلة الصيف ، وما أحج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . ثم أنا بعد رجل من المسلمين » .

أما الإخاء الإسلامى ، فإنه يقوم على معنى بسيط غاية البساطة يتمثل فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) ، وفى قوله ﷺ : « تحابوا بروح الله بينكم » وقد دعا أول الهجرة إلى التآخى بين الأنصار والمهاجرين ، ويبلغ الإخاء الإسلامى حد الفريضة فلا يكمل إيمان الفرد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهو إخاء يصل إلى أعلى مراتب السمو

الإنسانى إذ يرقى بالإنسان إلى غاية البر والرحمة من غير ضعف أو استكانة ، وهو الذى يطبع القيم الإسلامية بطابعها الفذ الفريد من الحرية والعدل ، ويجرد الفرد من شهوات المال والسلطان والجسد ، وتستقيم معه المساواة على الواجب والضمير أكثر مما تستقيم على وازع القانون ، فأن يحب الإنسان لأخيه مايحبه لنفسه معناه أن تذوب الأنانية فى بوتقة الغيرية والرحمة ، وأن تتضاءل النزعات الفردية أمام التكافل الاجتماعى ، وتقوم الفردية والجماعية على التوازن الخلقى ووازع الضمير ، فلا تمايز بين الناس فى جاه أو سلطان ، ولا استعلاء فرد على فرد ، أو حق لإنسان على إنسان غير ما يوجبه الخلق والضمير ، وغدا بذلك دعامة الخلق فى مبدأ المساواة أمام القانون .

والمسئولية فى الإسلام ليست مسئولية الضمير أو مسئولية القانون وإنما هى مسئولية الإنسان أمام الله مباشرة ، وهى مسئولية لاتقف عند الحدود الظاهرة من الأقوال والأفعال فحسب بل تتناول النوايا وماتخفى الصدور ، فالله عليم بكل شىء ولا تغيب عنه جل جلاله صغيرة أو كبيرة فى السموات والأرض (فأينما تولوا فثم وجه الله) ، (لا يعزب عنه مثقال ذرة) ، (وهو بكل شىء عليم) ، (عليم بذات الصدور) ، (إن الله على كل شىء شهيد) .

والإنسان مسئول عن نواياه ، والجماعة الإنسانية مسئولة عما تعمل

مسئولية الفرد سواء بسواء ، ومسئولية الجماعة فى عنق من يقومون بأمرها .

ومن هذه المسئولية يبرز الواجب كمبدأ أساسى فى النظام الإسلامى .

ويعنى ارتباط الحق بالواجب فى النظرية الإسلامية أن ما للفرد وما للمجتمع من حق هو واجب على الفرد والمجتمع يرقى إلى درجة الإلزام ، فالحرية حق لكل إنسان وواجب على الآخرين وعلى الدولة رعاية هذا الحق الإنسانى ، وحق الإنسان فى الحياة وفى التعليم وفى الرعاية الصحية والاجتماعية واجب على المجتمع وعلى الدولة كفالته ، وهو واجب لا يملك المجتمع ولا تملك الدولة الإغضاء عنه أو إنكاره ، إذ أن حق الفرد على الدولة واجب ملزم لها ، ويتضمن هذا الواجب الرعاية والكفالة والحماية بكل أنواعها ، ولا يعنى ذلك مسئولية الدولة المطلقة أو فناء شخصية الفرد فى الجماعة ، بل تبقى للفرد بعد ذلك شخصيته المتكاملة وحوافزه الفردية حرة طليقة من كل قيد فى كل مايتعلق بشئونه الخاصة أو نشاطه الخاص وفقاً لحدود الشريعة ، فقد أقامت الشريعة حدوداً بيّنة بين حرية الفرد المطلقة وحرية الفرد الاجتماعية ، فالحرية فى الإسلام تقوم على نوع من التوازن الدقيق بين الفردية والجماعية تكفلها الشورى التى تحدد معنى الديمقراطية السياسية والتوازن الاقتصادى الذى يحدد معنى العدالة الاجتماعية ويقضى على تكتل الثروة فى أيدى قلة من الناس فى إطار الأخوة الإسلامية التى تَجُبُّ

كل بادرة للاستعلاء والتمايز .

فالواجب هو الذى يحكم الإرادة كما يحكم الحرية ، ولكنه الواجب الذى ينشد الخير وليس الواجب الذى يضع القيود والالتزامات لمصلحة طائفة على حساب طائفة أخرى ، فالواجب فى النظرية الإسلامية قرين الحق فى النظرية السياسية العامة ، وهو الواجب الذى يلزم الإنسان وكل إنسان بأن يكون نهجه فى الحياة تحقيق الخير لكل الآخرين فرادى أو جماعات ، والقيود التى تضعها الشريعة هى التى تحدد نوع السلوك الذى ينشد الخير ويقوم عليه .

وحيث تتكامل هذه المبادئ الثلاثة فى أى نظام اجتماعى ، فإنها تحقق ماينشده العصر من إصلاح لروحه التى تعصف به النزعة المادية وتطغى عليه حوافز المنفعة بما تثيره من إحن وصراعات بين الأفراد وبين الجماعات ، وتكاد تودى بحضارة العصر إلى موارد التهلكة .

الإسلام وحقوق الإنسان :

خمسة عشر قرناً أو أقل قليلاً منذ بعث الإسلام بأعظم ثورة إنسانية تقيم الدين لله الواحد الأحد ، وقد دعا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام إليها من قبل ، ثم كانت اليهودية ، وبقدر ماحفلت به من تعاليم وقيم سماوية إلا أن اليهود خصوا بها أنفسهم ، فثووا إلى عزلة مريرة وعنصرية حادة واستعلاء مقيت ، طبع حياتهم بطابع خاص لم يتحرروا منه حتى

اليوم ، وحين راحوا ينشدون إقامة دولة ويتطلعون إلى ملك ، كانت عنصريتهم تقضى عليهم وتدمرهم فى النهاية ، وأصبح المجتمع اليهودى مجتمعاً مغلقاً على ذاته لايستطيع التحرر مما غذته به التوراة والتلمود من فكر عسير ، فلما جاءت المسيحية تبشر بملكوت السماء وتنادى بالمحبة والصفاء لقيت من اضطهاد اليهود فى البداية مالقيت من اضطهاد الرومان فى النهاية ، فلما أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، لم ينس المسيحيون ماحاق بهم من قبل على يد الدولة ، فآثروا الدولة على الدين واستأثرت الكنيسة بسلطان الدين والدنيا معاً ، وأصبحت هى السلطة الفعلية الحاكمة والمتحكمة فى سلوك الناس وفى ضمائرهم ، فجعلت التبعية لمملكة السماء محل المواطنة الرومانية ، ولم تعد روما القديمة التى وصفها « فيرجيل » بأنها ظئر الآلهة الفريجية على رأسها تاج من أبراج تطوف بعربتها مدن فريجيا ، وقد حملت ذريتها الإلهية واحتضنت أحفادها من أهل السموات العلى ، وأصبحت « روما الزانية أم البغايا التى سفكت دماء القديسين والشهداء » ولقى كل خارج على العقيدة المسيحية وكل وثنى رومانى مالقيه المسيحيون من قبل على يد الأباطرة والوثنيين ، وبدلاً من أن تشيع المحبة أشاعت التعصب والكراهية والحقد .

ولم تمض بضعة قرون حتى أشرق الإسلام بلألاء باهر غمر سماء الجزيرة العربية ، كما غمرت أضواء المسيحية مدن الجليل من قبل ، ولكنه

نشأ بعيداً عن سلطان الدولة ، فلم يلق مالقيت المسيحية من عسف الدولة وضغطها ، فلما تكونت الجماعة الإسلامية الأولى بالمدينة استطاعت أن تحمى نفسها وتدفع عن وجودها وتنزل بكل مايتعرض لها العقاب الزاجر ، فكانت السرايا والغزوات ثم الوقائع التى كسبت فيها النصر على مشركى مكة ويهود المدينة وغيرهما من قبائل العرب التى تصدت للدعوة تأميناً للدعوة وإعلاء لشأن العقيدة ، ولم تمض بضع سنوات حتى امتد سلطان الإسلام شرقاً وغرباً فأقام فى مدى ثلاثين عاماً دولة أهلت على الدنيا بنور اليقين .

وفى الوقت الذى علا فيه نجم الدولة الإسلامية فاجتمعت فيها حضارة العصور الوسطى وغدا المسلمون حماة الحضارة الإنسانية وبناتها الأفذاذ ، أخذت الدولة الإسلامية فى عصورها المتأخرة تعلى من شأن السلطة وتتخذ من الدين وسيلة للحكم وليس شريعة له . وتحولت الخلافة ، كما تحولت البابوية من قبل إلى سلطة إلهية ، ووقع المسلمون فيما وقع فيه المسيحيون من قبل وإن بقى جوهر العقيدة الإسلامية على صفائه الأصيل . وبقيت الشريعة على أصولها لم يعد عليها التحريف فكان الجهل ثم التحلل من مسئولية الضمير والوازع الدينى ، فضلاً عما جره الخلاف السياسى من تعدد الفرق والمذاهب ، وتسخير الدين للسياسة آفة المجتمع الإسلامى وآفة المسلمين ، وأصبح الدين طقوساً ورسوماً تؤدى غلب عليها الطابع اللاهوتى الذى غلب على المسيحية من قبل ، وهو

مايعبر عنه سيد أمير على أبلغ تعبير بقوله : «لقد أفصح أحد الوعاظ المسيحيين فى بيان واضح عن الفرق بين الدين واللاهوت ، وما أصاب الكنيسة المسيحية من جـــراء الخلط بينهما . . وما جرى فى المسيحية جرى فى الإسلام فقد حلت سخرية الإقرار الشفوى فى الإسلام محل الفعل ، وحل التمسك بالرسوم محل العمل الصادق بإسداء الخير للإنسان حباً فى الخير وابتغاء مرضاة الله ، فلما ولى العثمانيون أمور المسلمين لم يكونوا أهل علم أو حضارة ، وحين دخلوا عالم الإسلام كانت الحضارة الإسلامية قد أوغلت فى الانحدار ، فأخذوا بالمراسم والطقوس دون الجوهر ، وحكموا الدولة بسلطان الدين ولم يدركوا سماحته ونبله ، ومن سخرية الأقدار أن تلعب القسطنطينية – وقد أصبحت الآستانة أو إستانبول – فى الإسلام نفس الدور الذى لعبته فى المسيحية ، فحين خضعت الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية لإمرة الإمبراطور وبيروقراطية الدولة ، خضع الإسلام فى الآستانة لصولة الخليفة ، وطابع مشابه من البيروقراطية العثمانية التى سادت عالم العثمانيين ، وكان الغزو العثمانى وإن شابه غزو البرابرة الجرمان للإمبراطورية الغربية ، فإنهما انتهيا إلى نتيجتين مختلفتين لا من حيث الشكل ولكن من حيث الأثر ، فإذا كانت غزوات الجرمان قد أدت إلى قيام وحدة كنسية حلت محل الوحدة الإمبراطورية تسودها البابوية ، فإن غزو العثمانيين قد أدى إلى وحدة العالم العربى وخضوعه للسيادة العثمانية ، ولكن على عكس ماحدث فى العالم

الغربى ، أخضع الدين لسلطان الخليفة ، وفى الحالين ، فى روما وفى الآستانة ، غدا الدين رسوماً وطقوساً وشعائر تؤدى دون تفكير » .

وحين يغدو الدين رسوماً وطقوساً وشعائر تؤدى دون تفكير ، فإن الدين غالباً مايفقد جوهره الأصيل من حيث الإيمان القائم على اليقين ، ومن حيث القيم التى يبشر بها والتى جاءت بها الرسالات السماوية لخير الإنسان وصلاحه : لذلك بقى الإنسان بالرغم من اكتمال رسالة السماء بعيداً عن تحقيق المثل الأعلى المنشود لصلاحه وخيره .

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

فإذا كان الإسلام آخر رسالات السماء وكان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فهو دين السماء منذ بعثت أديان السماء ، دين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، دين عبادة الله وحده لاشريك له ، دين الوحدانية المطلقة المنزهة عن شرك ، وهى آخر مرحلة من مراحل التطور فى إدراك حقيقة الله ، تلك المراحل من التطور التى مرت بها رسالة السماء منذ بعث بها نوح حتى محمد عليهما السلام .

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً) النساء ١٦٣ .

فإذا كانت الأديان السماوية كلا متكاملاً ، وكان الإيمان بالله ورسله

وكتبه شرطاً من شروط الإسلام ، فإن ماجاءت به الأديان السماوية جميعاً لا يختلف أوله عن آخره وإن اكتمل فى الإسلام وكانت جميعاً لخير الإنسان وصلاحه .

إلا أن الإنسان وقد انقطع مابين السماء والأرض منذ خمسة عشر قرناً أو أقل قليلاً مازال بعيداً عن جوهر الرسالات السماوية ، وهو فى سعيه لإقرار خير البشرية وصلاحها فيما سماه الإعلان العالمى لحقوق الإنسان لم يأت بجديد على ماجاء به الإسلام من قبل ، فإذا كانت مواده قد أجملت حق الإنسان فى حياة حرة كريمة يسودها الإخاء دون تفرقة أو تمايز من أى نوع ، كما نبذت العبودية والرق والسخرة والتعذيب وسوت بين الناس أمام القانون فلا يدان فرد دون جريرة أو بينة ، وقدست حقه فى العمل والأجر دون مهانة أو إذلال أو إرهاق وحقه فى التعليم ليعيش حياة كريمة ، فإن كل ذلك هو مانصت عليه شريعة الإسلام .

وإذا كان الإعلان العالمى لحقوق الإنسان قد أعطى للأمومة والطفولة حقها من الرعاية والتوقير وأن يكون لكل فرد حقه الأصيل فى التعبير عن ذاته واستثمار مواهبه وقدراته ، وحدد واجب الدولة قبل الفرد والمجموع وكفل لكل فرد حقوقه السياسية والاجتماعية ، فإن كل ذلك كان من تعاليم الإسلام .

ولسنا بصدد المقارنة بين النصوص والمواد ، ولكن علينا أن نقول إن الإنسانية مازالت فى سعيها دائبة لتحقيق ماجاءت به تعاليم الإسلام منذ

خمسة عشر قرناً ، ولم يأت الإنسان بجديد ولكنه لايعني ما يملك .

ولعلنا فى هذا العرض الموجز لما يمكن أن يقدمه الإسلام من حلول لازمة للعصر لانبغي أكثر من أن نقول كما قال غيرنا من قبل : إن الإسلام دين كل زمان ومكان وإنه ينبض دائماً بروح العصر ، فهو دين الإنسانية ودين الفطرة على السواء . .

د . حسين فوزى النجار

الكتاب القادم

التراث الشعبى

د . عبد الحميد يونس

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمي	د . زكي نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تأريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د . عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٤م – عيون تكشف المجهول	د . محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د . محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د . سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د . مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف
٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد

٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د . أحمد الحوفى
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د . سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د . إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د . على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الاجتماع	د . فاروق محمد العادلى
٢٨م– روح مصر فى قصص السباعي	حسن محسّب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د . كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوى	د يوسف عبد المجيد فايد
٣١م– محمود حسن اسماعيل	د . عبد العزيز الدسوقى
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د . مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة الى الإيمان	أحمد حسن الباقورى
٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د . خليل صابات
٣٨ – يوميات طبيب فى الأرياف	د . الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندى
٤١ – ثقافة الطفل العربى	جمال أبو رية
٤٢ – اللغة الفارسية	د . محمد نور الدين عبد المنعم
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د . عبد المنعم النمر
٤٤ – الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلى
٤٥ – التعريف بالاقتصاد	د . حسين عمر

٤٦ – المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ – بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ – الفلسفة والحقيقة	د . عبد الحليم محمود
٤٩ – الطب النفسى	د . عادل صادق
٥٠ – كيف نفهم اليهود	د . حسين مؤنس
٥١ – الفن الإذاعى	د . فوزية فهيم
٥٢ – الكتابة العربية	محمد شوق أمين
٥٣ – مرض السكر	د . أحمد غريب
٥٤ – شوقى أمير الشعراء ... لماذا ؟	فتحى سعيد
٥٥ – الفلسفة الإسلامية	د . أحمد عاطف العراق
٥٦ – الشعر فى المعركة	حسن النجار
٥٧ – طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ – الإعلام ولغة الحضارة	د . عبد العزيز شرف
٥٩ – تاجور شاعر الحب والحكمة	على شلش
٦٠ – كوكب الأرض	د . فرخندة حسن
٦١ – السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ – التصوف عند الفرس	د . إبراهيم شتا
٦٣ – الرومانسية فى الأدب الفرنسى	د . أمال فريد
٦٤ – القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف
٦٥ – التعبيرية فى الفن التشكيلى	د . نعيم عطية
٦٦ – ميراث الفقراء	فؤاد شاكر
٦٧ – العمارة والبيئة	المهندس حسن فتحى
٦٨ – قادة الفكر الاقتصادى	د . صلاح نامق
٦٩ – المسرح الغنائى العربى	محمود كامل
٧٠ – الله أم الطبيعة	د . يوسف عز الدين عيسى

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٢٩٨
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٧٤٠ – ٥

١/٧٩/٥٥ طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هـذا الكتاب

كان الإسلام ثورة اجتماعية ، كما كان ثورة دينيه ، وهو دين قادر على مواجهة التحديات التاريخية والاجتماعية فى العالم الحديث . .

وهذا الكتاب يقدم كثيراً من الحلول الإسلامية لما يعانيه العصر ، ويؤكد للإ
موقفه من كثير من القضايا المعاصرة . .

١٠ جـ